مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة
سُورَةُ البَيِّنَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة البيّنة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة البينة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

تعالج وتبين سورة البينة شأن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين بأنهم غير منفكين ولا منتهين حتى تأتيهم الحجة البينة الواضحة بأنهم على ضلال، وأن الحق فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نزل عليه من القرآن الكريم. فقال الله تعالى ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب، الذين هم اليهود والنصارى ﴿ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ الذين هم عبدة الأوثان ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أي: منتهين وزائلين عن كفرهم وشركهم ﴿ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ أي: حتى تأتيهم الحجة البينة الواضحة بأنهم على ضلال، وأن الحق فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نزل عليه من القرآن العظيم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لم يكن هؤلاء الكفار من أهل التوراة والإنجيل، والمشركون من عبدة الأوثان ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ منتهين، حتى يأتيهم هذا القرآن[١] وقال السعدي رحمه الله تعالى: أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، ولا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً[٢]. وبذلك فقد قامت الحجة عليهم بأن يتركوا ما هم عليه من الكفر؛ واتباع البينة التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا ما يفيد أن اليهود والنصارى على باطل فيما هم عليه، وأن الله تعالى لا يقبل منهم ما هم عليه، بل وردت التسوية والمعية لهم مع المشركين ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٥٥١)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٤٤١)

فجميعهم سواء في الكفر، وذلك لأنهم انحرفوا بالتوراة والإنجيل، وكذبوا بما عندهم من العلم بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك لأن الله تعالى قد نسخ بهذا الدين ما سبق من الكتب.

ثم أظهر وفسر تبارك وتعالى دلالة البينة، فقال عزَّ وجل ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ أي: أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله ربكم ﴿ يَتْلُواْ ﴾ يقرأ ﴿ صُحُفًا ﴾ جمع صحيفة، وهي محتويات القرآن الكريم، الموصوفة من الله تعالى بأنها ﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾ أي: نقية من جميع أنواع الخلل، والمفاسد، بما يفيد أن القرآن صحف متصفة بالكمال النقي عن كل شائبة. والذي ليس بعده كمال في حججها، وأحكامها، وأخلاقها وآدابها، وعموم تشريعه، ووعظه وهدايته.

ومن دقائق البيان أن في قول الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ ﴾ دليل على إتقانه تلاوة القرآن عن ظهر قلب كما نزل عليه، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب صلى الله عليه وسلم. بما يدل على أن تلاوته للقرآن آية وحجة في ذاتها. وقد نعته سبحانه وتعالى هنا بأنه رسول، دون أن يذكر اسمه صلى الله عليه وسلم ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ لأن بعثته آية وعلم، ولأنه بالبينات التي معه أصبح معروفاً بأن محمداً لا غيره الرسول صلى الله عليه وسلم. فكان إعجازاً بيانياً، اكتفاء بدلالة أدلته وشواهده عن ذكر اسمه. بأنه رسول الله لا غيره عليه الصلاة والسلام. وسَمَّى الله تعالى القرآن الكريم في هذا البيان ﴿ صُحُفًا ﴾ لبيان كثرة ما فيه من العلم والحجج والبراهين، ولإفادة التفخيم والتبجيل للقرآن العظيم. وتفخيم وتبجيل رسوله صلى الله عليه وسلم، بأنه يتلوا صحفاً مطهرة. وفي الوصف لها بأنها مطهرة هو حكمٌ لها، ونفي لها من كل ما يُضادها. وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى الكتب السابقة أيضاً بالصحف فقال تعالى في سورة الأعلى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ليدل ذلك على أن الصحف تطلق على مجموع ما احتواه كتاب الله تعالى. ليفيد كثرة المحتوى.

ثم يزداد التعظيم والتفخيم للقرآن الكريم، فقال الله تعالى ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ في هذه الصحف كتب، وليس كتاب واحد. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: في الصحف المطهرة كُتُب من الله تعالى قيمة عادلة مستقيمة. ليس فيها خطأ، لأنها من عند الله تعالى. وقال قتادة رحمه الله تعالى: يذكر أن القرآن بأحسن الذكر، ويُثني عليه بأحسن الثناء[١] إذ يوضح ويبين الحق من الباطل.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٥٥٢-٥٥٣)

وهنا نجد توافق صيغة الجمع للكتب وللصحف. لإفادة الكثرة الحقيقية لمحتويات القرآن في كل باب يحتاجه الإنسان، فأصبح القرآن بتنوع ما فيه كالكتب المتعددة بتعدد أغراضه، وتنوع معالجاته، وما فيه من القصص، ومن الوعظ، والوصف للجنة، والوصف للنار، والوصف لحال أهل الجنة، وحال أهل النار، وما تضمن من الحلال والحرام، والأحكام، والتشريع للعبادات وغيرها، وما فيه من الترغيب والترهيب، وغير ذلك مما تضمنه القرآن العظيم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب فيما هم عليه، من قبل البعثة النبوية، ومن بعدها. فقال الله تعالى ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ لم يتفرق أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا من بعد ما جاءهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما معه من الحجج والبراهين البينة، والتي على رأسها القرآن العظيم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بُعِث. قاله الأكثرون[١] أي: مجتمعون على الإيمان بأنه سَيُبعَث محمد صلى الله عليه وسلم نبياً، فلما بُعِث عليه الصلاة والسلام كفروا به، حسداً من عند أنفسهم.

ثم يخبر الله تعالى بأن امتناعهم لم يكن لأمر ثقيل، وإنما هو من باب العناد والاستكبار، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ ما أمر الله تعالى هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين بما هم عاجزون عنه، فقد أمرهم بإخلاص العبودية له تبارك وتعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ بأن يُخلصوا عبادتهم لله وحده لا شريك له، والإخلاص يفيد معنى التصفية والتنقية للعبادة، بأن تكون لله وحده لا شريك له.

فلم يأمرهم إلا أن يكونوا ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مبتعدين عن كل ما نهاهم الله عنه من الباطل. مستقيمين غير مائلين إلى أي دين، وأي معبود غير الله تعالى. كما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام حنيفاً. وقد ورد في سورة الأنعام قوله تعالى ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي مستقيما، مخلصاً، قد انتفى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام الشرك. وكما قال الله تعالى في سورة يونس ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي: فأقم عملك ونفسك بإقبالك على الله سبحانه وتعالى. بأن تتوجه إليه وحده لا شريك له، فيوجهون وجهتهم وقلوبهم في قبلتهم وعبادتهم وطلبهم ودعائهم لله تعالى وحده لا شريك له، وفق ما أمر وشرع.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٩/٨)

وكذلك اشتمل أمر الله تعالى لهم على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فبدأ أولاً، بالصلاة. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: ويحافظوا على أداء الصلوات المفروضة. بجميع شروطها وواجباتها وأركانها، كما يؤديها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ورد الأمر بأداء الصلاة بفعل الإقامة ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ لتفيد المحافظة على الصلاة، والمداومة على أدائها، وإقامة جميع ما يتعلق بها، فإن دلالة ﴿ وَيُقِيمُواْ ﴾ تستجمع إخلاص القلب لها بالنية والخشوع، واستحضار القلب فيها، والإتيان بشروطها وأركانها وواجباتها، وكذلك قيام الجوارح بالنهوض لها، والعزم، والامتثال، والنشاط في أدائها على سبيل الاستمرار الذي لا ينقطع، ولا يتوقف. كما وورد الأمر بإقامة الصلاة بصيغة الفعل المضارع ﴿ وَيُقِيمُواْ ﴾ مما يبين الاستمرار في إقامتها حتى يموت الإنسان المؤمن. وهذا التوجيه الكريم يدل على أنها شرط لصحة الإيمان. كما هو تحريض للمداومة والاستمرار عليها، ليعطي دلالة المبالغة في ذلك. وعدم الانقطاع، أو التراخي والتهاون.

وكذلك يؤدون الزكاة، حيث عطف سبحانه وتعالى الزكاة على الصلاة، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فيؤتوا الزكاة كما شرع ربنا تبارك وتعالى. وفي إفراد الزكاة والصلاة من بين جميع العبادات دليل على أهميتها. كما جعل رتبة الزكاة بعد الصلاة مباشرة، ليدل على منزلتها ومكانتها. ومن دقائق البيان أن الامتثال بأداء الزكاة ورد بدلالة الإيتاء ﴿ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ والإيتاء يفيد معنى الإعطاء، فالمزكي يُعطي غيره الزكاة. بما يفيد أن هناك مستحق بحاجته إلى الزكاة، فوجب على المؤمن أن يؤدي ذلك بأمر ربه عَزَّ في علاه. وهذا يُظهر عناية هذا الدين العظيم بالمحتاجين، وأن لهم حق في أموال غيرهم. ويجب على من وجبت الزكاة عليه أن يدفع ذلك وفق ما شرع الله تعالى. وليظهر بذلك عناية منهج الله تعالى بالتعاون والتعاطف بين أفراد المجتمع المسلم.

ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى بأن هذا الذي أمر الله تعالى به هو الدين المستقيم ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ دين الاستقامة، القائم على الحق، الذي لا اعوجاج فيه. وقد أشار إليه سبحانه وتعالى باسم الإشارة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ ليعطي دلالة التعظيم والتفخيم لهذا الدين الذي أمر به عَزَّ وجل، فإنه ﴿ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي: دين الاستقامة، القائم على الحق، الذي لا اعوجاج فيه. قال الزجاج رحمه الله تعالى: دين الأمة القيّمة بالحق[١]

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٩٠)

فهو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. فلم نأمرهم بما يعجزون عنه، بل إنه دين سهل مستقيم في منهجه وأحكامه وأخلاقه. فليس هناك ما يمنعهم من إقامة الدين. بما يفيد أن الذي منعهم هو العناد والاستكبار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

لقد بين وأوضح تبارك وتعالى فيما سبق أن ليس هناك ما يمنع أهل الكتاب والمشركين من قَبُول دينه العظيم الذي بعث به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلا الحسد والاستكبار، إذ أنه دين ربهم القويم الذي لا يأمرهم بما يعجزون عنه، وإنما يأمرهم بأكمل تقويم وتشريع وأخلاق، من الإخلاص لله تعالى بالعبادة، وإقامة الصلاة وإيتاء والزكاة.

ثم يبين جَلَّ جلاله عاقبة من لم يدخل في هذا الدين العظيم. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ إن الذين أنكروا هذا الدين العظيم، فكفروا به، من أهل الكتاب الذين هم اليهود والنصارى، ومعهم أهل الشرك، فكفروا بما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فجحدوا نبوته، فإنهم ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ فإنهم في الآخرة في عذاب النار، بل مخلدون خلوداً أبدياً لا ينفكون عنه أبداً.

ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ فإن أولئك الذين هم أهل الكتاب والمشركين هم أشد وأشر الخليقة التي خلقها الله تعالى في الشر والسوء. فليس هناك أكثر شراً وعاقبة منهم. لأنهم عرفوا الحق معرفة تامة وكاملة، بالبراهين والحجج، ومع ذلك قابلوه بالجحود والنكران والكفر.

مما يدل على أن دين الإسلام الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم قد نسخ جميع ما سبق ممن أنزل الله تعالى فيهم الكتب، وبعث إليهم الرسل، وأنه لا دين بعد بعثته صلى الله عليه وسلم إلا الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، فمن لم يؤمن ويعمل به فهو من جملة شر البرية.

وبعد بيان الله تعالى لحال الكافرين من أهل الكتاب والمشركين بأنهم في نار جهنم، وأنهم شر الخليقة ينتقل السياق الكريم إلى بيان وتوضيح شأن المؤمنين الذين جمعوا مع إيمانهم طاعة ربهم عَزَّ وجل، فقال تعالى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ إن الذين جمعوا بين الإيمان، وبين العمل بما أوجبه الله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ أي: خير الخلق وأفضلهم عند الله تعالى.

فهناك شرطان لتحصيل ذلك الفوز بخير البرية، الشرط الأول: الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما الشرط الثاني: فهو ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة، فإن قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قد جمعت كل الصلاح. وهي غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها. فإن أهلها هم ﴿ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ خير الخلق. مما يبين منزلة طاعة الله تعالى.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وسَمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى بثوابهم الذي أعده لهم في الآخرة، فقال تعالى ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ فإن جزاء إيمانهم وعملهم بالصالحات التي هي دين الله تعالى ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ أي: وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع. وهي جنات استقرار وثبات، قال أبو عبيدة أي: في جنات خُلْد، يُقال: عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[١] وعَدَنَ بالمكان: أقام به، وعَدَنَ بالبلاد توطنها. وعَدَن الأرض: سَمَّدَها. فهي جنات دائمة لا نهاية لها. بل من عظيم تكريمهم هو قوله تعالى ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ فمكانتهم ومنزلتهم عند ربهم، وهذا شرف وتشريف لهم من الله العزيز العظيم.

ومن دلائل ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ أنها جنات إقامة. أي يقيمون فيها إقامة أبدية، خالدين لا يموتون فيها، ولا يُخْرَجُون منها. فيتنعمون بجميل ولذائذ ما فيها، وهي جنات استقرار وثبات. وتعني دلالة ﴿ عَدۡنٖ ﴾ وسط الجنة الذي هو أعلاها، أي أعلى درجة في الجنة، وسقفه عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[٢] فإن الله سبحانه وتعالى محقق للمؤمنين والمؤمنات جنات من البساتين التي تجري من بين أشجارها الأنهار المتدفقة، وأن سكناهم فيها للخلود الذي لا يزول أبداً.

ثم قال تعالى في وصف جنات عدن ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي: أنها جنات، وليست جنة واحدة، بل جنات متعددة. إذ وردت الجنات بصيغة الجمع ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ والجنات هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت ﴿ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها من تحت قصورها، وبين أشجارها. فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

وقد وصف الله تعالى الحياة في الجنة بالخلود ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ فإن حياتها خلود دائم لا ينقطع ولا يفنى، ولا ينتهي ولا يزول. ومن عظيم مميزاتها أيضاً هو رضوان الله تعالى عليهم، ورضاهم كذلك عن ربهم جَلَّ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣) ملخص

جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ فقد اشتملت على نعمتين عظيمتين: الأولى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ فقد رضي الله عنهم لطاعتهم ربهم، فَقَبِل طاعتهم، وتجاوز عن تقصيرهم وذنوبهم. أي: بطاعتهم إياه سبحانه وتعالى في الدنيا، فَقَبِلَ أعمالهم، وأفاض عليهم رحمته في الدنيا وفي الآخرة. والثانية: ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ أي: نالوا ما يُرضيهم. بأن تحقق لهم ما وعدهم به، ففرحوا بما أعطاهم من العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، فأكسبهم كمال الرضا عن ربهم سبحانه وتعالى بما ألبسهم وأغدق عليهم من فضله. ولم يحصر سبحانه وتعالى الرضا بالآخرة فقط، أو الدنيا فقط، بل ورد عاماً، ليفيد العموم والشمول، في الدنيا والآخرة، فهم راضون عما أعطاهم الله تعالى. ومن دقائق البيان أن أوقع الله تعالى رضاهم عنه عَزَّ في علاه ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ بما نالهم من خيراته ورحمته جَلَّ جلاله.

ثم يُعَظِّمُ الله تبارك وتعالى ذلك الجزاء بقوله عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ فذلك الجزاء العظيم هو لمن خاف منزلة ومكانة وعظمة ربه، فهاب ربه عَزَّ وجل خوفاً وتعظيماً. مما يفيد أن هذا هو حال المؤمن الذي حافظ على عبادته وطاعة ربه، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، فكان حاله في الحياة الدنيا أنه يهاب مقام ربه، وجلال قدره. كما قال تعالى في سورة الرحمن ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ فله من عند الله عَزَّ وجل جنتين. لأن من تبعات هذا الخوف من مقام الله تعالى يوم القيامة ما يجعل المؤمن عبداً مطيعاً، فيواظب ويحافظ على طاعة ربه سبحانه وتعالى، ويتجنب ويحذر المعصية، والاقتراب منها. فيكرمه الله تعالى بكرمه، ويجازيه بجنتين في الآخرة.

وقال تعالى عمن خشي مقام ربه في سورة النازعات ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١ ﴾ وأما من اتصف في الحياة الدنيا بالخوف والمهابة من ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ الذي يقف فيه العباد للحساب والجزاء يوم القيامة ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ ومنع نفسه مما يستهوي ويثير هواه من الباطل ﴿ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ فإن مصيره وعودته للجنة التي يأوي إليها، جزاء لما كان منه من طاعة ربه، ولزوم دينه الحنيف. مما يبين أثر مخافة مقام الله تعالى التي تعبر عن قوة الإيمان،

وأثره على لزوم الطاعة، والبعد عن المعصية. اللهم نسألك الجنة، لنا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين. واجعلنا ممن خاف مقامك ونهى نفسه عن هواها يا رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة البينة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.